داخل الكنيسة التي تحولت الى موقع عسكري ، وبين الطلقات والقذائف، يقف المقاتل ، في سكون الليل وارتجاف ثلاث شمعات وامام جسد المسيح الملقى على الارض شبه محطم ، ليقيم قداسا بين رفاق سوف يدخلون معركة حقيقية بعد دقائق ، هذا الاحتفال يتكرر وسط الشارع حين تندفع مجموعة من المقاتلين وهي تعزف على الآلات الموسيقية وتطلق النار حزنا او فرحا او احتجاجا على موت شهيد · او حين يصل الحوار في المواقع وبين الكمائن المتقدمة الى درجة تصبح معها الكلمة على فوهة البندقية تصرخ بالثار وحين تصل الى الاسير تنحني بحنان المقاتل ، تقدم كوب الشاي وتطلب من قيادة الجبل معاملة الاسير بشهامة ورحمة ·

الذاكرة هي تعبير ثانوي ، لكنها لا تبقى مجرد ذاكرة ، تحاول ان تلتقط الايقاع وتشحنه بالمضامين والتجارب الجديدة · كسر الايقاع يحتاج الى زمن اكثر اتساعا · لذلك تلجأ الاغنية الى الايقاع الشعبي وايقاع الاغنيات المعروفة لتحاول ان تقيم تعبيرا خاصا عن حياة القتال والمقاتلين · وعلى الرغم من جدارة محاولات خالد الهبر وبول مطر ، فان الاغنية المباشرة الحية التي يؤلفها احد المقاتلين ثم يؤلفها الجميع بعده بقيت هي سيدة الاغنيات تنشد في المواقع في فترات الهدوء وفي المعسكرات وفي المهرجانات ·

في « القوات » نماذج هائلة من الاغنية الشعبية الفلسطينية التي تحتاج الى جمع ودراسة ، حيث تبرز مواهب المقاتلين واتجاهاتهم · وفي الحرب الاهلية برزت نماذج اخرى تحمل شعارات محددة وتشير الى مستوى معين من منهج التجربة الجديدة · ضمن الروحية الزجلية « لاح العلم الاحمر لاح بالقنطاري وبالشياح » · الى الاغنية الحقيقية الكاملة · ولعل تجربة « حاتم » من السرية الطلابية واللجان الوطنية هي اكثر التجارب دلالة خلال الحرب · فهي اغنية سياسية تنطلق من ظروف المعركة وظروف الواقع لتقول شيئا محددا · تتكىء على اللحن المعروف لتقوم باعادة صياغته من خلال الكلمة :

« الله الله الارادة الرهيبة
والمسافات صارت قريبة
وان كان اكيد
كل يوم بيخلق

كيف الابطال طلعوا الجبال
ما في شي صعب كل شي بينطال
سقط الشهيد
مية عنيد »

على اللحن الفيروزي « الله الله يا تراب عينطورة » تعود عينطورة عربية من جديد وتتجسد ارادة من صنعوا هذا التغيير في وضوح الرؤية وتحليل ملموس للمعركة · الاغنية هي اشارة لتجربة لذلك فحين تنتقل الى المستوى السياسي المباشر فانها تاتي من خلال تجربة مباشرة :